

لذة، ولا أجد نشاطاً إلى أن أشاركها فيما تخوض فيه من لغو، ولكني مع ذلك حريصة كل الحرص على أن تشد الصلة بيني وبينها وتزول الكلفة، ولم يكن في هذا مشقة ولا عسر، فما أسرع ما اتصل الحديث، وما أسرع ما انتهيانا به إلى الدخائل والأسرار! وما أسرع ما أحسست في نفسي عداوةً آثمة تشد كل يوم وتنمو حتى تملأ قلبي وتملك عليّ كل أمري وتكاد تخرجني عن طوري وتدفعني إلى ما لا خير فيه. فقد فهمت — وليتني لم أفهم — أن سكينه لم تخلف هنادي على الإصلاح من أمر الدار والقيام بما تحتاج إليه من خدمة فحسب، وإنما خلفتها على قلب هذا الشاب إن كان لهذا الشاب قلب، بل خلفتها على هواه ومجونه وعلى إثمه وغوايته، وما أكثر ما لهذا الشاب من الهوى والمجون، ومن الإثم والغواية! إنما هو صائد يحتبل الفتيات احتبلاً ويختلبهن اختلاباً، يصرفهن عن الجادة وينحرف بهن عن القصد، حتى إذا بلغ منهن ما يزهده فيهن خلى بينهن وبين ما ينتظرهن من الموت أو من حياة هي شر من الموت.

وإذن فقد خان هنادي ولم يحفظ لها عهداً ولم يستبق لها مودة، ولم يكد يفارقها حتى انصرف عنها وزهد فيها، والتمس لذته وهواه حيث استطاع، لم يحفل بما قدّم من سوء، ولم يحفل بما قدمت إليه من تضحية، ولم ينظر إلى هذا كله إلا على أنه لعب يُنفق فيه الوقت ويستعان به على احتمال الحياة وتُسلى به الغربة في مدن الأقاليم.

هو خائن إذن، وهو يضيف إثم الخيانة إلى إثم الغواية، وهو خليق أن يلقي جزاء هذين الإثمين كأشنع ما يكون الجزاء، وهو لاقٍ لحظه من هذا الجزاء في يوم من الأيام، ولاقيه من يد أمانة هذه التي شهدت الموت مرتين: شهدته حين عُدّي على أختها من يد ذلك الخال الأثيم في ذلك الفضاء العريض، وشهدته حين عُدّي على ذكرى أختها من يد هذا المهندس الشاب الغاوي وفي هذه الدار الصغيرة الأنيقة التي يقوم عليها البستاني وتضطرب فيها سكينه كما كانت تضطرب فيها هنادي.

أغيرةً هذه التي تضطرم في قلبي اضطراباً وتحبب إليّ التفكير في الموت وكيف يساق إلى الناس، وتحبب إليّ التفكير في الخناجر التي تمزق الصدور وفي السم الذي يمزق الأحشاء؟ أغيرةً هذه التي يغلي لها الدم في عروقي ويصعد لها اللهب في وجهي وتقذح لها عيناها بشيء كأنه الشرر، يحمل أهل الدار على أن ينكروا منظري وعلى أن يتساءلوا ما خطبي وإلى أي حال سينتهي بي ما أنا فيه من الذهول؟!

أغيرةً هذه التي زادت الحزن عن نفسي وأقامت مكانه غضباً ثائراً متصلاً لا يهدأ ولا ينقضي؟ ولن أغار أو على من أغار؟ أغائرةً أنا لهذه الأخت البائسة التي ذقت الموت